قراءات ومراجعات

مراجعة لكتاب
منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران*
تأليف: فتحي حسن ملكاوي**

عبد الرزاق بلعقروز***

ثمة لفتة مهمة تظهر في الإنتاج الفكري الإسلامي المعاصر، خاصةً في جانب تجديد سؤال القيم، وهذه اللفتة مدارها الرئيس إعادة بناء منظومات القيم من حيث المفهوم، والعناصر، والاتساع. فالقيم ضمن هذا المقام الجديد أضحت كليات تأسيسية يتقوَّم بها غيرها، لا فضائل تكميلية ينتفي الضرر بفقدها، أو تكون محل تقويم من معيار آخر ليس فيه للقيمة التوجيهية دور أو أثر.

إن هذا التجديد لسؤال القيم ورفعها إلى مرتبة الكليات التقويمة مع ضبط عناصرها هو الإطار العام الذي يتنزل فيه كتاب الأستاذ الدكتور فتحي حسن ملكاوي "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران"، الصادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي سنة ٢٠١٣م، ويتنزل فضلاً عن هذه الإطار الكوني العام ضمن جهود الفكر الإسلامي المعاصر الباحثة عن السبل القويمة لرؤية العالم والإنسان والكون مجدداً، وفق المسلك القرآني النقي؛ رؤية لا ترتهن في مفاهيمها بالموروثات القديمة: اليونانية، واليهودية، والمسيحية التي شوَّشت فعل الإدراك السليم للحقائق والغايات الكبرى للإسلام، ولا ترتهن أيضًا بالمنظور التجزيئي المنتشر في الخطاب الإسلامي المعاصر، المستغرق في قضايا التكليف الشرعي والأحكام الجزئية، من دون الارتفاع إلى الكليات.

---

* ملكاوي، فتحي حسن. **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٣م.

** المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة.

*** دكتوراه في الفلسفة، رئيس مشروع دكتوراه "فلسفة القيم وإبستمولوجية العلوم الإنسانية" في جامعة سطيف ٢، الجزائر. البريد الإلكتروني: abderrezak19@yahoo.fr

تم تسلم المراجعة بتاريخ ٢٠١٥/٦/٥م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٥/١١/٢٨م.

مقدمة الكتاب:

يطالعنا الدكتور فتحي حسن ملكاوي في مقدمة كتابه بجملة من الأفكار التي تُعَدُّ بسطاً أولياً لما سيتناوله في فصول الكتاب، وأول ما يطالعنا به هو التناظر الموجود في هذه المنظومة الإيمانية التي صاغها (التوحيد، والتزكية، والعمران)، وجهود الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني في رؤيته للهدي القرآني الذي دفع به (العلواني) إلى صياغة ما سماه منظومة القيم الحاكمة، فحدَّد عناصرها في ثلاثة مفاهيم قيمية كبرى هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، ورأى أن هذه القيم الثلاث تُكوِّن معاً مرجعية مقاصدية، ولكن هذه المنظومة القيمية هي –في الوقت نفسه– تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، وليست شيئاً خارجاً عنها، أو مفروضاً عليها.[١] وبالفعل فقد بلور العلواني هذه الرؤية ضمن مشروع إعادة الاعتبار إلى الوحدة البنائية للقرآن المجيد، من أجل علاج مسألة الانفصال بين الرؤية الكلية الإسلامية والفقه في صورتيه: الكبرى والصغرى، ومقتضى هذا "رد الاعتبار إلى الكليات القرآنية والكليات الشرعية –بوجه عام– بعد أن كاد الانشغال بالدليل الجزئي ودقائقه يطمس الأهمية البالغة لتلك الكليات ويعطل تشغيلها."[٢]

ويجدر التنويه هنا بأن كلمة "المنظومة" ترد عند العلواني وملكاوي في توصيفهما المنهجي للعلاقة بين التوحيد والتزكية والعمران؛ نظراً إلى تلازم صفتي الترابط والتكامل بين مكونات هذه المنظومة، ويُفصح ملكاوي عن هذه الحقيقة قائلاً: "فإذا كان التوحيد هو العنصر الأساس في النظام العام الاعتقادي وتفرعاته المعرفية، والتزكية هي التمثل العملي للشخصية الإنسانية، وتفرعاتها النفسية والعقلية، والعمران هو الصورة العامة للنظام الاجتماعي وتفرعاته الاقتصادية والسياسية، فإننا نكون قد جمعنا في هذه المنظومة جوانب الحياة البشرية، وما يتخللها من صور النشاط الإنساني."[٣]

إن هذه المنظومة المتواشجة العناصر، في تصور ملكاوي، ليست خاصة فقط بالإنسان المسلم، وإنما هي إنسانية، وذات أبعاد كونية؛ "إنها في الوقت نفسه قيم إنسانية

[١] ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص١٢٠.

[٢] العلواني، طه جابر. **التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة**، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣م، ص١٠.

[٣] ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص١٣.

عالمية، سواء في منطق المؤمنين بالله الواحد من أتباع الرسالات، أو في منطق دعاة التقدم والنهوض الحضاري؛ أو على الساحة العالمية."[٤] ونظراً إلى هذه الأبعاد الإنسانية؛ يمكن القول بأن هذه المنظومة بصيغتها التكاملية تُعَدُّ رؤية إلى العالم؛ لأنها تتوفر على العناصر الكبرى المؤسسة: الله، والإنسان، والكون.

وقد أولى المؤلِّف الفصل الأول (التوحيد الأساس الأول في منظومة القيم العليا) أسبقية منطقية على غيره، مؤكداً أن القول بالتكامل بين التوحيد والتزكية والعمران لا يستلزم القول إنها في مستوى واحد من الأهمية والقيمة؛ لأن التوحيد هو رأس الأمر كله في الإسلام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ (الأنبياء: ٢٥). وقد أشار المؤلِّف في هذا الفصل إلى صورة التوحيد كما تتبدّى في المرجعية القرآنية وفي السنّة النبوية الشريفة، ثم رصد صوراً أخرى للمعالجة كما هي موجودة في اجتهادات العلماء المسلمين، وانتهى إلى استخلاص مضامين التوحيد: المعرفية، والأخلاقية، والأسرية، والاجتماعية، متوكئاً على اجتهادات المفكرين الإسلاميين المعاصرين، وفي طليعتهم الأستاذ الدكتور إسماعيل الفاروقي رحمه الله.

وفي استقرائه لألفاظ التوحيد في القرآن الكريم، يلفت الدكتور ملكاوي نظرنا إلى قضية منتشرة في تاريخ الأديان، امتدت مضامينها إلى بعض مفكري العالم العربي،[٥] وتقضي هذه النظرة بتبنّي فكرة تقلّب الاعتقادات الدينية في ثلاثة أطوار: طور تعدد الآلهة، وطور الترجيح بينها، وطور التوحيد، إلا أن مَن يُعمل النظر في القرآن الكريم يجد عكس هذه التأملات؛ فالمرجعية القرآنية حاسمة في أن التوحيد كان جوهر العقيدة مُذ خُلق آدم أبو البشر، والله يرسل الرسل والأنبياء تذكيراً للإنسان بوحدانية الله المركوزة في لفطرة، إلا أن قسوة القلوب وطول الأمد هما ما جعل البشر يتخذون آلهة يتعبدونها من دون الله. ثم يأخذ بنا التحليل إلى بيان خصوصية التوحيد في الإسلام، إضافةً إلى الديانات والشرائع الأخرى؛ إذ يؤكد التوحيد الإسلامي وحدة الدين التي نلحظها في

[٤] المرجع السابق، ص١٦.

[٥] المقصود هنا عباس محمود العقاد، في كتابه: **الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**.

قصص الأنبياء، فجميع الأنبياء والرسل جاءوا بدين التوحيد، ويربط بين الوحدانية وحصر الألوهية بالله سبحانه وتعالى. "ويستشهد كثير من العلماء بالآيات القرآنية الكريمة على ثلاثة أنواع من التوحيد: توحيد الربوبية، بمعنى أنه رب العالمين، وهو وحده المتفرد بالخلق والتدبير والتسيير والإحياء والإماتة... وتوحيد الألوهية؛ بمعنى الإيمان بأن الله وحده الذي يستحق العبادة، ويكون له الخضوع والطاعة، وإليه وحده يتوجه الدعاء والرجاء... وتوحيد الأسماء والصفات؛ بمعنى الإيمان بأن الله متصف بجميع صفات الكمال، ومنزّه عن جميع صفات النقص، متفرّد بصفاته على جميع المخلوقات."[٦]

إن هذا المعنى للتوحيد يؤسس لنظام الحقيقة، ونظام الحياة؛ فنظام الحقيقة يؤسس لوحدة الحقيقة في نظرية المعرفة، التي تعني استحالة التناقض بين الموجودات وقوانينها، والعقل الإنساني الذي يكتشفها؛ لأن المصدر واحد.

وأما نظام الحياة فيعني حضور علاقة الخالق بالإنسان، من غير توحد ولا انفصال، وإنما حضور المعيَّة، والشعور بالوجود الإلهي في حياة الإنسان، وما يثمره هذا الشعور من توجه القلوب إليه وحده سبحانه، فيقل الخلاف بين أفراد المجتمع، وتسود قيم التحابب والتآلف والتوادد، وهنا يمكن الاستدلال بالنص الخلدوني في ربطه بين تأليف القلوب والوجود الاجتماعي المتوازن والمتكامل، "وسرّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله، اتّحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة."[٧]

ولا تختلف دلالات التوحيد في السنّة النبوية الشريفة عن معاني الألفاظ في القرآن الكريم، من ذلك أن القرآن الكريم حسم أمر التوحيد بوصفه هدف الرسالات الإلهية إلى المملكة الإنسانية، وكذلك الحديث النبوي الذي رتّب معرفة الله سبحانه وتعالى بوصفها أول واجب على الإنسان في حياته، وأول مبدأ في دعوة الناس إلى الدين.

[٦] ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص٢٩.

[٧] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**، عناية ودراسة: أحمد الزعبي، بيروت: دار الأرقم بن الأرقم، د.ت، ص١٨٨.

والمؤلِّف حريص على التمييز بين ما يسميه موضوع التوحيد وعلم التوحيد، ويجد هذا التمييز أصله في أن موضوع التوحيد إيمان وعمل بمقتضى هذا الإيمان، ورؤية إلى العالم، ونموذج في الحياة على ضوء هذا الهدى الإلهي، وهو يتصف بالوضوح والثبات في العناصر، وقوامه أن الله واحد في ربوبيته وألوهيته وصفاته. أما علم التوحيد فيتضمن جملة الطرق المنهجية والوسائل المعرفية التي تناول فيها العلماء هذا الموضوع، برصد الحجج العقلية من أجل الدفاع عن العقائد الإيمانية، وله أسماء عدة، منها: علم الإيمان، وعلم الكلام، وأصول الدين... .[٨]

وقد أشار المؤلِّف إلى جملة جهود الدعوة المعرفية المعاصرة في تأكيد أهمية موضوع التوحيد، مثل كتاب عبد المجيد النجار "الإيمان بالله وأثره في الحياة". أما الكتاب الذي خصه بالقراءة والتحليل فهو كتاب الشهيد المرحوم إسماعيل راجي الفاروقي "التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة"، بوصفه شاهداً أمثلَ على إسهام مدرسة إسلامية المعرفة في الكتابة عن التوحيد بطريقة تجديدية، وليس بطريقة تقليدية. ولمّا كان الكتاب المذكور قد جعل التوحيد أم القيم جميعاً، والقيمة المركزية التي تتفرع عليها بقية القيم، فإن ملكاوي أبصر فيه نموذجاً حياً ومثالاً يُحتذى به على التجديد النوعي في علم الكلام بإعادة تفعيله منهجياً ومعرفياً، وذلك عن طريق وصله بأوجه الحياة المتعددة، وتجلّيه في صورة العديد من الأنظمة (النظام المعرفي، والنظام الاجتماعي، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي). ومن هنا فقد أضحى التوحيد هو الوشيجة التي تتكامل فيها عناصر الوجود والحياة كلها، والركيزة المنهجية التي تُرى من خلالها الأشياء بنور التوحيد كما يتحدد في السياق المعرفي القرآني، لا كما وصل من اجتهادات الفِرق والظروف التاريخية.

ويختتم الدكتور ملكاوي هذا الفصل باستخلاص المبادئ المنهجية التي تتفرع من هذه القيمة المركزية (قيمة التوحيد)، وهي: مبدأ تكامل الخلق والأمر، ومبدأ تكامل الدنيا والآخرة، ومبدأ تكامل الوحي والعالم، ومبدأ تكامل العقل والحس.

[٨] قدَّم المؤلِّف أمثلة على مصنفات تراثية تنضوي تحت علم التوحيد، منها، كتاب "التوحيد" للماتريدي، وكتاب "المطالب العالية" لفخر الدين الرازي.

ويناقش المؤلِّف في الفصل الثاني (التزكية في منظومة القيم العليا) مسألة التزكية وفق رؤية معرفية تجد أصلها في المرجعية القرآنية، أو في منظومة القيم العليا. وللتزكية مكانة مهمة في هذه المنظومة، فموضوعها "الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، إصلاح الفرد والجماعة والأمة، والإنسان مادة وروح، والتزكية تشمل المادة والروح، وأي حديث عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا تعلّق بالإنسان، واستهدف ترقيته في مراتب التزكية. والتزكية هدف العمران ووسيلته في الآن نفسه، فهي ليست مسألة مشاعر وخلجات وخواطر نفسية، مقصورة على مستوى الإصلاح الفردي، بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري."[٩]

ويسلك المؤلِّف مسلكه المنهجي المعهود؛ أي البدء بمعجم ألفاظ التزكية في القرآن الكريم، ثم السنّة النبوية، لكنّ خصيصة التناول هنا هي عدم البناء على الدلالة اللغوية، وإنما الاستئناس بها فقط، وبهذه الطريقة في التعرّض للمفاهيم القرآنية،كالتزكية وغيرها، ندرك أثر طه جابر العلواني الذي رأى أن الدلالة الشرعية يجب أن تسبق الدلالة اللغوية؛ ذلك أن "المصطلحات والكلمات التي استعملها الشارع قد قام بعملية تفريغ وشحن لها بالمعاني التي أراد الله سبحانه وتعالى وضعها فيها... وحين تصبح حقيقة شرعية، ينبغي أن تكون لها الأولوية في معانيها للمعاني الشرعية، لا اللغوية التي نقلت عنها، ولا للوضعية التي يتواضع عليها أهل الاصطلاحات."[١٠]

وتأسيساً على ذلك، ابتدأ المؤلف حديثه عن التزكية انطلاقاً من المعجم المعرفي القرآني أولاً. ولـمّا سلك هذا المسلك ظفر بخمسة معانٍ للتزكية، أربعة محمودة وواحدة مذمومة، وهي على التوالي:

١. **حين يكون الإنسان مكتسباً التزكية:** تتمثل ثمرة هذا الاكتساب في الفلاح، وتحقيق التقوية والتنمية والتربية، بما يرفع الإنسان إلى رتبة التقوى والفلاح، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ (طه: ٧٥-٧٦).

[٩] ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص٨١.

[١٠] العلواني، **التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة**، مرجع سابق، ص٦٢.

٢. **حين تكون التزكية هي فعل الله سبحانه وتعالى:** يُقصد بذلك أن الله يزكي مَن يشاء، وأن الإنسان مهما بلغ به اجتهاده فلا يدّعي أنه وصل؛ لأن الله هو المزكي الأعلى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ (النساء: ٤٩).

٣. **حين تكون التزكية من مهام الرسول:** يُضمِّن المؤلف هذا المعنى أربع وظائف استخرجها من الآيات القرآنية الكريمة التي أوردها، ومنها قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (البقرة: ١٥١)، وهذه الوظائف تتكامل فيما بينهما لتنجز الفعل التزكوي بوصفه أحد مقاصد الحق –سبحانه– من إرسال الرسل بالهدى، وهي: تلاوة الآيات (لمحور الأمية وتحقيق التكريم الإلهي)، والتزكية بمعنى الطهر والبركة والتنمية، وتعليم الكتاب (لما فيه من خير وعلم وهدى)، وتعليم الحكمة؛ أي الإصابة في القول والفعل والعمل وامتلاك البصر الحكيم بالأمور.

٤. **تزكية المال:** تُعَدُّ تزكية المال ركناً ركيناً في الدين، ووسيلةً من وسائل تطهير النفس من الشح، وتنمية الشعور بالاستعلاء على فتنة المال، والقيام بحق الجماعة وأعضائها.

هذه ألفاظ التزكية من القرآن الكريم التي وردت على سبيل المدح. أما اللفظ الذي ورد على سبيل الذم فمتعلق بتزكية الإنسان لنفسه بالمدح أو الذم، وهي الحالة الوحيدة التي تكون فيها التزكية فعلاً مذموماً؛ لأن مدح الإنسان نفسه أو ذمه إياها موقوف على اطّلاعه على حكم الله فيه، وهذا غير ممكن بالنسبة إلى الإنسان؛ لأن العبرة في الأخير هي بمَن يزكيه الله، وليس بمَن يزكي نفسه.

وينتقل بنا المؤلِّف –بعد هذا الاستقراء لمعاني القرآن الكريم– إلى التزكية كما تظهر في الأحاديث النبوية ثانياً، وبرأيه أن دلالاتها لا تختلف أو تتعارض مع دلالات القرآن؛ لأن النسق المعرفي القرآني والنبوي متكامل، ويشكل وحدة في المعنى والدلالة.

بعد الوقوف على دلالات التزكية في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، نجد أن المؤلِّف ينتقل بنا إلى التزكية من حيث المعنى، ومن حيث الممارسة، كما تحددت في سياق

مدارس الزهد والتصوف والجهاد ثالثاً، وهي مدارس تجلّت فيها التزكية بصورة صحيحة، وأحياناً تسلك مسلك الزهد، أو الرهبنة، أو العزلة، بالرغم من أنه لا رهبانية في الإسلام، والسبب فيما يرى المؤلِّف وراء هذا الانزواء هو ذيوع الفتن السياسية، وانتشار ظاهرة الاحتفاء بالدنيا، وقلة التعلق بالآخرة، وتظهر لنا أيضاً ثلاثيات متكاملة ضمن هذه المدارس؛ فهي أحياناً ثلاثية التزكية: التخلّي، والتحلّي، والتجلّي، وأحياناً أخرى ثلاثية الشريعة والحقيقة والطريقة.

وعطفاً على هذا، فقد بيَّن الدكتور ملكاوي أن الزهد الانعزالي "لا يكون عند الإنسان المؤمن هروباً من حمل الأمانة وعجزاً عن القيام بمسؤولياته في ابتغاء فضل الله من الكسب الحلال، ومن الإسهام في الإنتاج وتلبية متطلبات الواقع السياسي والاجتماعي ولا تكون رهبانية تحرّم على الإنسان ما أحل الله، فلم يكتب الله الرهبانية على أحد في رسالته إلى البشر... . ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الحديد: ٢٧)."[١١]

ثم يأخذنا المؤلِّف إلى صميم فعل التزكية؛ أي تزكية النفس الإنسانية، التي تُعَدُّ كياناً متكاملاً من عناصر ثلاثة، هي: الجسم، والعقل، والرُّوح. وإذا كان بإمكان الباحث أن يُحصِّل قدراً من المعرفة عن الجسم، فإن معرفته بالروح لا تكون ممكنة إلا من خلال آثارها في الحياة، والعقل أيضاً فيه جزء من المحدودية في معرفة كُنْهه؛ فهو يقوم على التعقّل والإدراك، غير أن القرآن الكريم يربط الفاعلية العقلية بالقلب؛ أي إن محله ليس الدماغ، وإنما القلب الذي محله الصدر؛ لأن أي عمل يقوم به الإنسان يمر بسلسلة خطوات يشترك فيها الجسم والعقل والنفس. ولكن، كيف تكون التزكية للجسم والعقل والقلب؟

أ. **تزكية الجسم**: يفهم المؤلِّف من الجسم هنا أفعال الجوارح؛ فاليد تتزكى بالعطاء والصدقة، والعين تتزكى بالنظر والتأمل في ملكوت الله، وضمن هذا السياق يمكن تعزيز

[١١] ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص٩٩.

هذا المنحى في تزكية الجسم بما قاله أبو حامد الغزالي: "فأعضاؤك رعاياك، فانظر كيف ترعاها."[١٢]

ب. تزكية العقل: تنبع أهمية هذه التزكية من اعتبار العقل مناط الهداية إذا استُعمِل على وجهه الصحيح؛ فالعمليات العقلية التي أشار إليها القرآن الكريم، كالتدبر والتفكر، فيها تأكيد منه (القرآن) بواجب تزكيتها؛ أي تقويتها وتنميتها، ويكون ذلك بالبحث والعلم واقتناص المعارف؛ لكيلا يكون فعل التعقل أداة في يد الأهواء المتصارعة. ويربط المؤلِّف بعد هذا ربطاً عضوياً بين تزكية العقل وثمرتها في الارتقاء السلوكي.

ت. تزكية القلب: يتبنّى المؤلِّف في مفهوم القلب الدلالة القرآنية؛ فالقلب ليس فقط تلك اللحمة الصنوبرية المعلقة في الجانب الأيسر من الصدر، وإنما هو المحل الذي تتم فيه عملية التعقل، بمعنى الوعي والإدراك، وهو أيضاً محل لما يجول في الإنسان من الداخل؛ أي النية، والعزم، وتوارد الخواطر، وانفعال النفس بالمشاعر كالحب مثلاً، بالإضافة إلى تعقل الأفكار والمعاني لكي يحصل بهذا التعقل الاعتبار والفهم، فضلاً عن أنه اللطيفة الرُّوحانية الربانية التي يتواصل بها الإنسان مع الخالق تبارك وتعالى، ومع الأرواح.

وبعد أن أورد المؤلِّف جوانب تزكية النفس الإنسانية من مرجعية معرفية قرآنية، فإنه ينتقل بنا إلى الجانب العملي من التزكية؛ أي الوسائل المتوفرة التي تعيننا على السمو بالتزكية، والانتقال من السلوك الاعتيادي إلى السلوك الارتقائي.

وفيما يأتي وسائل التزكية التي بوَّأها المؤلِّف مكانة أساسية:

- **القرآن الكريم**: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ (الإسراء: ٩)؛ إذ لا توجد وسيلة أخرى أكثر قيمة من القرآن الكريم في تزكية النفس الإنسانية، ففيه من تزكية اللغة: تقويم ألفاظ اللسان، وترقية أساليب البيان؛ وفيه من تزكية القلب: ما تطمئن به القلوب؛ وفيه من تزكية المال: تطهير النفس من الشح، وتحقيق البركة في المال ومضاعفته. فمن أراد التزكية فعليه بالحياة في ظلال القرآن.[١٣]

[١٢] الغزالي، أبو حامد. **بداية الهداية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي**، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٣م، ص٣٨٨.
[١٣] ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص١١٣.

- **الذكر والفكر**: يُنظر إلى الذكر بوصفه استحضاراً لعظمة الله في القلب، والتفكر والتدبر في آياته. وآيات الله نوعان: آيات مكتوبة تُتلى قراءةً، وآيات مشهودة. والذكر والفكر عندما يتمكّنان من قلب الإنسان وروحه يطير بهما إلى رتبة الإحسان.

- **صحبة الصالحين**: تكتسب هذه الوسيلة أهمية خاصة؛ إذ إنها ترتقي بالإنسان المسلم الذي امتلأ قلبه إيماناً وصدقاً، وتجعله يجد في الإخوة الإيمانية والتناصح وسيلة لتحصين النفوس من أجل مواجهة الفتن المحدقة. وبالصحبة الصادقة تتقوّى القلوب، وينمو القلب الزكي، بدءاً بصلاة الجماعة التي هي أفضل من صلاة الفرد؛ لأن في المسجد صلاة الجماعة، وفيه جلسات العلم والتعليم، فضلاً عن مضاعفة قوة الإدراك التي يُزوِّد بها التجمع الإنسان العادي، ويُعمِّق من وجدانه.

ويؤكد المؤلِّف في نهاية هذا الفصل أن منهجية التكامل المعرفي، بوصفها المرجعية القويمة للمنهجية الإسلامية في الفكر والبحث والسلوك، تهيئ لنا السبل الكفيلة باستنباط المبادئ الأساسية اللازمة لفهم مكانة التزكية في منظومة القيم العليا. ومن هذه المبادئ: مبدأ تكامل الجسم والعقل والروح، ومبدأ تكامل الوجود الإنساني بين الفرد والمجتمع، ومبدأ تكامل العلم والعمل.

ويواصل المؤلِّف في الفصل الثالث (العمران في منظومة القيم العليا) تطبيق المنهجية المعرفية لتحرير المفاهيم من الدلالات التي لا تتوافق مع المرجعية المعرفية القرآنية، وتطبيق المنهجية التكاملية من أجل رصد عناصر الوصل بين منظومة القيم العليا، فيطالعنا بالقيمة الثالثة: العمران، وهي قيمة تحدد فِقْه العمل في الحياة الدنيا؛ أي عمل المجتمع المتعلق بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس. وبحسب رأي المؤلِّف، فإن أحد الأسباب التي جعلت المسلمين يتخلون عن العمران قيمةً وفعلاً، تلك الفُهوم الجزئية التي روَّجت النظرة الاحتقارية إلى الحياة وأنكرت قيمتها، وشوَّهت مفهوم التزكية الذي يسع أوجه الحياة كلها، وحصرته في الرهبنة والزهد في الحياة، وقد نجم عن هذه النظرة إهمال شؤون الحياة، والتخاذل عن الصعود إلى القمة.

ويستمر المؤلِّف في مسلكه المعهود في الفصلين السابقين، فيستقرئ مفهوم العمران في لغة القرآن، ويرصد الآيات التي تضمنت مفردة "العمران" ومشتقاتها.[١٤] وقبل بسط

[١٤] أورد المؤلف آيات قرآنية كثيرة تضمنت مفردة "عمر". للاستزادة، انظر:

المعاني في صورة عناصر محددة الدلالات، يتبيَّن أن ما "يقابل العمران في اللفظ القرآني هو: الفساد والقتل وسفك الدماء، والهدم والتدمير، والهواء والخواء، والخراب؛ إذ وردت جميع هذه الألفاظ في القرآن الكريم، في مقابل الحياة واستمرارها على السنن والقوانين الجارية، وبقاء المساجد عامرة بالعابدين الذين يذكرون الله، وانتظام الحياة على هدى الله سبحانه."[١٥] وبناءً على هذا، يستخرج لنا المؤلِّف أمثلة تستجمع داخلها الدلالات التكاملية للعمران قرآنياً:

١. **حالة الحياة:** تشير مفردة "الحياة" إلى حياة الإنسان الفرد، وحياة الأُمة، وحياة البشرية على وجه الأرض؛ لأن عمارة الحياة تشمل كسب متطلبات الحياة الدنيوية، والتوظيف الصالح لكل ما استودعه الله فيها؛ أي إن قصد الحياة هو عمارة الباطن والظاهر في نسق تكاملي تنفيذاً لمهمة الخلافة في الأرض. ولـمّا كان الإنسان يحيا في جماعة إنسانية، فإن هذه الجماعة تكون عامرة بحفظ الحياة وإشاعة قيم التكافل والتعارف والتراحم، وضد هذا العمران الاجتماعي انخرام العلاقة بين الجماعات الإنسانية، وتمزّق شبكة علاقاتها، وانتشار الصراع والفساد في الأرض والبحر والجو، ويكون القتل هو أسوأ صورها.

٢. **الإقامة والسكنى والبناء في أمر محدد:** ذلك أنّه من أخص أوصاف العمران الاستقرار والبناء في أرض تصبح بعد هذا معمورة، ومن قبل كانت مهجورة، وما يستتبع هذا من تشييد المساكن وأمكنة العبادة ومجمعات الحاجات الاقتصادية؛ للوفاء بمتطلبات الحياة، والارتقاء بأسباب استمرارها، فالبيت المعمور هو البيت الآهل بالسكان، وكذا بالملائكة العابدين لله ﷻ، المسبحين بأمره.

٣. **العمران المادي:** يقصد به الجانب المادي من الحضارة الذي يبدأ بصورة جهود علمية يكون حاصلها اكتشاف القوانين وتوظيفها والبناء عليها من أجل إعمار الأرض، وتيسير أوجه الحياة الإنسانية. ومن مظاهر العمران المادي: الابتكارات التقنية التي أوجدها الإنسان في البر والبحر والجو (بضائع، طائرات، وسائل نقل)، وعمارة الأرض

– ملكاوي، **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص١٢٨، ١٣٠.

[١٥] المرجع السابق، ص١٣١.

بفلاحتها وزراعتها؛ لفتح فرص الرزق للناس، وتوفير حاجاتهم المادية والاجتماعية، ولا يَعُدُّ القرآن الكريم هذا النوع من العمران دليلاً على رشادة الإنسان واستقامته، بل قد يكون دليلاً على انطماس البصيرة عنه. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الروم: ٩)؛ أي إن عمارة الأرض تتخذ دلالتها المستقيمة من انضباطها بقيم تعلو عليها، هي: التوحيد، والتزكية، ودرء آفات الطغيان والعتو.

٤. العمران الثقافي والفكري: يحيلنا هذا المعنى للعمران إلى الجوانب المعنوية من الحضارة؛ أي تطوير العلوم، وبناء المؤسسات، وسن القوانين والأنظمة، ونشوء الثقافات، وقبول الخضوع لسلطة الإدارة والحكم، ويقابل هذه المكاسب الإيجابية للعمران سيادة الجهل والأمية والفوضى والفساد في صوره المتعددة. أما إعمار هذه الجوانب المعنوية فيكون بتنمية صروح العلم وإعمارها بالاجتهاد والإبداع.

وبعد هذه الدلالات المعرفية القرآنية يأخذ بنا المؤلِّف إلى المعنى كما تحدَّد في الحديث النبوي الشريف، فيرصد أربع عشرة دلالة للفظة "العمران"، من بينها: العمر بمعنى الزمن الذي يمضي من حياة الإنسان، أو المدة الطويلة (مكثت معه عمراً)، والقسم بالعمر (لعمرك، ولعمر الله)، والعمران وهو ضد الخراب، وعمران الروح للجسد أو الحياة، وعمران القلوب والبيوت بالقرآن، وعمران المساجد؛ أي بناؤها المادي، أو حضور الصلاة أو حلقات العلم... وغيرها من المعاني الواردة التي تشترك مع المعاني القرآنية في ربط العمران بالحياة وجوداً وعدماً، وربطها بعمارة القلب وتزكيته، وتشترك أيضاً في العمران المادي، وكذا الثقافي، والمعنوي.[١٦]

وبعد هذا الوقوف على المفاهيم القرآنية للعمران وأبعادها الحضارية، لا يفتأ المؤلِّف يُعرِّج على مؤسس علم العمران البشري ابن خلدون؛ ذلك أن عنصر العمران في منظومة القيم الحاكمة يتماثل في لفظه ومعناه مع مراد المؤلِّف، فالعمران قيمة عليا تدخل في

[١٦] أورد المؤلِّف على كل دلالة حديثاً نبوياً شريفاً شاهداً على معنى من المعاني. للاستزادة، انظر:
– المرجع السابق، ص١٤٤، ١٤٥، ١٤٦.

صميم الإطار المرجعي للمنهجية الإسلامية في التفكير والبحث والسلوك، ويُفرِّع المؤلِّف من هذه القيمة الكلية مبادئ تدخل في صميم قيمة العمران، منها: مبدأ تكامل متطلبات الحياة الاجتماعية (الزراعة، والصناعة، والاتصال)، ومبدأ تكامل ميادين المعرفة (علوم الوحي، والعلوم الإنسانية، والعلوم الطبيعية)، ومبدأ تكامل الانتفاع والاستمتاع.

خاتمة:

يُعَدُّ هذا الكتاب تجديداً لسؤال القيم في الفكر الإسلامي المعاصر، بنقلها من دائرة الجزئية والتجزيئية إلى رتبة الكليات التأسيسية، في صورة منظومة ملمحها الجوهري الترابط والتكامل. وتمثل هذه المنظومة الكلية معايير تُرَدُّ إليها جميع القيم الفرعية، ولا تُرَدُّ هي أو تُنسَب إلى غيرها، خاصةً قيمة التوحيد الكلية، وتُقدِّم (أي هذه المنظومة) أداة منهجية قويمة ضمن مبادئ المنهجية الإسلامية في مجالاتها الإجرائية الثلاثة: التفكير، والبحث، والسلوك؛ ما يجعلها منظومة تتوفر على وصفي الإحاطة والشمولية، وهي إحاطة وشمولية لكل أوجه الحياة، ركائزها الناظمة والحاكمة تستمد قوتها من مبدأ التكامل؛ فهو النسغ الذي يسري ويجدد الحياة في فاعلية هذه المنظومة، وجميع العناصر المتفرعة منها.